سُعار المال

للأستاذ كامل محمود حبيب

هذا هو المال ، له ألق براق يخطف البصر ويخلب اللب ويستلب الفؤاد ، وله سحر جذاب يأسر القلب ويستهوى النفس ويطمس على الرأى .

فرويدك — يا صاحبي — فإن سعار المال يوشك أن يركبك فتزلق فتصبح وما بك طماح إلا جمع المادة . أنت الآن على حافة الهاوية ، فتعال أسر إليك حديثاً عله تجد فيه متعة أو زجراً أو لهواً :

إن الكلَب للمادة يصدئ العقل ويشل الفكر ويبلد الذهن وينفث فى القلب الغظاظة والغلظة ، ويستل الإباء والأنفة ، ويورث المهانة والضعة .

وذو الكلَب لا يرعى حقاً ، ولا يبقى على ود ، ولا يتورع من رذيلة ، ولا يرتدع عن دنيئة ، ولا يتذمم من مأثم ، ولا يترفع عن صَغار ؛ غايته أن يجمع المال ويكدسه ، ثم لا يعنيه فى هذا السبيل أطوّنه العار أم استذله المسى !

وأنت فتى عُقد عليك أمل منذ تخرجت فى الجامعة ، وعلقت بك الأبصار منذ عُينت فى وظيفة حكومية ، ومنذ صرت بين اخوتك وأهلك رجلاً وإنساناً ، فيا ضيعة الأمل إن تلفتوا فلم يجدوا فيك الرجل ولا الإنسان !

يا عجبا ! كيف يركبك « سُعار المال » ، وأنت يا صاحبي رجل ، فتصبح وما بك طماح ... !

* * *

أتذكر يوم كان راتبك الحكومى سبعة جنيهات ، يوم كان ميراثك يغل عليك فى السنة خمسين جنيهاً فحسب ! لقد كنت رضى النفس طيب القلب سمح السجايا ، تأنق فى ملبسك ومأكلك ومسكنك ، وترف رفيقاً جميلا على رفاقك ، وتفيض على صحابك من كرمك ، وتحبو اخوتك الصغار بعطفك ؛ فكانت أحاديث الحب والاحترام تحوم حواليك حيث أنت ، يتضوّع من خلالها عبير الإخلاص والوفاء . وكنت أنت تنهال بشراً وإيناساً ، يفيض وجهك طلاقة ومرحاً ؛ وكنا نأخذ عليك كثرة المزاح والفاكهة ونلومك على أن ترى الحياة هزلا وهذراً ، لا تستأهل أن يُعنَّى المرء نفسه بما تجيء وبما تذر ، فسخرت منها حيناً وضحكت عليها حيناً . أفكانت تلك طبيعة رُكّبت فيك ، أم هى أخلاق تخلقتها إلى حين ؟ !

والآن ، حين ارتفع راتبك إلى العشرين من أثر التنسيق ، وحين زادت غلة ميراثك إلى المائة من أثر الحرب ، وحين سحرك حب الغنى ، وحين ركبك « سُعار المال » ... نسيت أنك عضو فى أسرة ، وأنك أخ بين إخوة ، وسحبت على الماضى ذيل النسيان ، فمقتت أهلك وذويك ، وأفضيت من الود والقرابة ، وفاض منك البشر والإيناس ، وانمحت فيك سمات البشاشة والمرح ، وانطويت على نفسك تدفن آمالك المادية فى أضعاف أخيلتك ، وتطوى خواطرك الأرضية بين ثنايا وحدتك ، وحالت ابتسامتك ، وأصابك السُّموم ، فذوت نضارتك وتغضّن جبينك ، وعشت ساعات طوالا تتأمل فى « خريطة مساحية » تغذّيها وتقلبها وتضع علامات هنا وهنالك ، وتقول لنفسك : « آه لو اشتريتُ هذه وهذه وهذه ... وآه لو استبدلت هذه بتلك وتلك بهذه ! » ورحت تسلك إلى غايتك سبلا مادية وطرقاً ملتوية .

هذا هو شغلك فى فراغك وفى عملك ، وأنت تعلم يا صاحبي أنك تثقل على نفسك وتحملها ما لا طاقة لها به ، فهذه أعباء لن تترفع بك إلى غايتك ، ولو حرصت !

نعم ، أنا أعرف خلجات نفسك ونبضات قلبك ، فلا تقل إنى أستعين على عوادى الزمن — وأنا شاب — خيفة أن تعصرك على حين فجأة ؛ ولا تقل إنى أعيل لأولادى حياة ناعمة وأضمن لهم حق التربية والتعليم ، فالمدرسة تبهظ الأب فى غير رحمة ، والحكومة تسخر من الموظف حين تدفع له راتبه أول الشهر لتتقاضاه — من بعد — أقساطاً ثمناً للكتب والعلم ؛ والأب بينهما يستعرى السغب والعرى ليشترى لأولاده مكاناً فى المدرسة . لا تقل ذلك فإن للثراء مسارب أولها التوفيق وآخرها الشح والكزازة !

* * *

وأذهلتك أخيلة الثراء فأسففتَ . وخيَّل إليك أن زوج أختك قد غلبك على بعض مالك ، فذهبت إلى أختك تحاسبها على ذنب لم تقترفه ، وأمطرتها بحديث فيه الجفاف والتقريع ؛ وأحست هي منك الجفوة والخشونة ، فلم تجد في طبيعتها النسائية ما تدرأ به عن نفسها إلا الدمع فأجهشت للبكاء تستنزل عطفك وتستهض مروءتك ، ولكن قسوة المادة قتلت فيك الرجولة فاندفعتَ تصليها شواظاً من فارص الكلام ... وراحت هي تبكي !

لعلها — يا صاحبي — كانت تبكي فيك الإنسانية ! !

وتحاماك أهلك حين جاءك صاحب دين يستقضي دينه فطلقته ثم أنكرت عليه حقه ، ثم سخرت منه لأنه لم يكتبه عليك . وطلب هو الفوت من عميد أسرتك ، فما تموَّنت في الدفع ولا تمهلت !

واستعانك أحد ذوي قرابتك في شأن حزَبه ، فطلبت إليه ثمن جهدك !

وراءى — يا صاحبي — أن ينفث فيك سمار المادة سمومه فتطمس على عقلك وتدفعك إلى آخر الشوط ، فتهجم على أخيك الأكبر بكلمات وضيعة طائشة تودعها رسالة ، ثم تبعث بها إليه في غير خشية ولا حرج ، بعثت إليه رسالة وهو على خطوات منك!

أنسيت أنك عشت عمراً من عمرك ترى فيه الأب والأخ في وقت معاً ، فكنت تجد إلى جانبه راحة قلبك وهدوء بالك ، وكنت تفزع إليه إن حزبك أمر أو فدحك حادث ؟ ! ونسيت أنك حين أردت أن تتزوج أرسلت إليه — دون أبيك — تسأله الرأي وتستعينه على أن يخطب إليك ابنة « فلان بك » فأسرع إلى أبيها يحتال للأمر ، إرضاء لك ، حتى أصاب التوفيق ! ؟

وتزوجت أنت من ابنة « البك » ، وهو رجل ذو مركز وجاه وثراء ، تقلَّب في وظائف القضاء حتى كاد أن يبلغ ، وانطف على نفسه — منذ نشأته الأولى — فعاش في منأى عن صخب الحياة وضجيجها ، فأفاد صحة ومالا . ولصقت أنت إلى « البك » واتخذته مثلك الأعلى ، ولكنك كنت منه كالقزم من المارد ، وتصاغرت نفسك في عينيك فما لك مال ولا جاه ولا مركز إلا سبابات ، وتراءى لك أن المال وحده يسمو بك فتتطاول إلى حيث « سعادة البك » ، فأخذتك شهوة المادة وركبك سمار المال . ولكن كيف السبيل وأنت عاجز اليدين قليل الحيلة ! فاندفعت تسلك إلى المال سبلا فيها الصغار والخسة ، أيسرها أنك استخذيت « لسعادة البك » ، فمشت في داره يمولك ويمول أولادك ، وسكتَّ أنت إلى هذا الوضع الوضيع لقاء دريهمات تدخرها ، لا تغني من كرامة ولا تسمن من إباء ، ثم استخذيت مرة أخرى فأقامك على بعض شأنه — احتقاراً لك منه وامتهاناً — أجر ما أطعمك وأسكنك !

وتهاوت نفسك صغاراً وضعة فما حاولت أن تستشعر رجولتك إلا أمام أختك ، وإلا حين كتبت إلى أخيك الأكبر رسالتك تقول : « . . وظننت أن تقدمك عليَّ في السن يخولك السيادة أو يؤهلك للسبق . ولئن كنت أنت بكر أبوينا فما يعني ذلك من أن أسبقك في العلم والجاه والمال !

وأنت دأبت على أن تعطلني حق رغبة منك في أن تستلبه أو تضيِّعه عليَّ ، رغم أننا أعقاب أب واحد نتقسم تراثه على سواء ، لي مثل ما لك من حق ومن مال في ما ترك أبي — رحمه الله — وإن مواقفك مني في كل مناسبة توحي إليَّ بأنك تنفس عليَّ أشياء تورث الحقد بين جنبيك ، فإما سلمتني كل حق لي في مدى ثلاثة أيام من تاريخه ، وإما رفعت أمرك للقضاء ... »

وسكت منك أخوك لأن امتهن رأيك ، فما تجني عليك وما مطلك وما غالك ... سكتَّ ولكنك أنت لم تسكت !

* * *

ما ذا عسى أن تكون — بعد هذا — إن جرفك التيار ؟

هذه النار أنت وحدك حطبها ، فارعوِ واحفظ عليك مالك كيف شئت ، ولكن لا تنقض من حق الأخوة ولا من حق القرابة !

وإذا جرفك التيار — يا صاحبي — فستكسب المادة ، ولكن بعد أن تفقد نفسك ، وسيركبك الندم حين لا تستطيع أن تسد الثغرة وقد انفرجت ، ولا أن تلم الشعث وقد تشعث !

فاضل محمود حبيب